الأمير عبد القادر الجزائري ودوره السياسي والعسكري

عبد الأمير هويدي الحيدري

اتحاد المؤرخين العرب

المقدمة

يعد المجاهد الجزائري الأمير عبد القادر الجزائري واحد من أبرز المناضلين ليس في الجزائر فحسب، بل الوطن العربي لكفاحه العظيم في سبيل تحرير الجزائر من السيطرة الاستعمارية ومحاولاته في تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة ودوره المتميز في القضايا العربية.

أن ثورة الأمير عبد القادر الجزائري من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٧ لخير دليل على شدة المقاومة وشعبيتها، ولم تنته المقاومة بانتهاء ثورة الأمير بل ظلت مشتعلة واستمرت قوية حتى عام ١٨٦٥م ولم تنقطع عملياً حتى عام ١٩٦٢م، وهذا ما تشهد به ثورة الزعاطشة بقيادة سيدي بوزيان – وهو أحد قادة الأمير عبد القادر الجزائري – عام ١٨٤٩م ولكنها لم تستمر طويلاً، لأن الاستعمار أباد أفراد القبيلة،

ثم قامت ثورة الأغواط بقيادة محمد بن عبد الله عام ١٨٥١م وتلتها ثورة القبائل الصغرى عام ١٨٥٣م، وبعدها قامت ثورة ((لا لا فاطمة)) السيدة فاطمة بالقبائل الكبرى أي بجبال جرجرة عام ١٨٥٧م،

ثم قامت ثورة الفلاحين التي تزعمها (الحاج أحمد المقراني) (١٨٧١م – ١٨٧٤م) وهي ثورة تكاد تكون شاملة لأنها خطت منطقة القبائل والسهول والشرق الجزائري، ثم ثورة أولاد سيدي الشيخ بالسهول والغرب الجزائري التي انتهت عام ١٨٨١م، وقد كانت امتداد لثورة بو عمامة بالجنوب الغربي التي دامت أكثر من عشرين سنة (١٩٨٨م – ١٩٠٤م) ثم ثورة الأوراس عام ١٩٦١م ثم انتفاضة ١٩٤٥م. وآخر هذه الثورات ثورة التحرير والاستقلال الكامل للشعب الجزائري في تموز ١٩٦٢م[١].

وفي بحثي هذا تناولت في المبحث الأول نشأة الأمير وكفاحه في سبيل الجزائر وأبرز معاركه ضد القوات الفرنسية.

و تناول المبحث الثاني التنظيم الإداري والعسكري لدولة عبد القادر الجزائري.

أما المبحث الثالث فقد استعرضت فيه نهاية كفاح ومعارك الأمير عبد القادر الجزائري الأخيرة وكيف أعلن استسلامه للقوات الفرنسية بعد رحلة طويلة من النضال والكفاح.

آمل أن يكون البحث البسيط قد تناول ولو بشكل بسيط صفحة من حياة هذا المجاهد الكبير وأن ينال القبول والرضى.

المبحث الأول

نشأته وكفاحه في سبيل الجزائر

هو الأمير عبد القادر ناصر الدين الحسيني، يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي (عليه السلام)، ولد في ٢٣رجب عام ١٢٢٠هـ/ آذار عام ١٨٠٧م في قرية وادي الحمام وبها ترعرع وأخذ منها مناهل العلم والثقافة والأدب[٢].

وفي عام ١٨٢١م انتقل إلى وهران مع والده الذي وضعته الحكومة التركية هناك تحت الإقامة الجبرية نظرا لدوره الواسع في إثارة حماس الجزائريين. واستطاع الأمير عبد القادر أن يضيف إلى ثقافته الأولى معارف أخرى من علمائها واستطاع أن يصل إلى حقيقة هامة يشاركه فيها والده أيضا هي ضعف الأتراك السياسي والعسكري مع اتساع استغلالهم للطبقات الشعبية الكادحة[٣].

وعندما أفرجت الحكومة العثمانية عن والده وأذنت له بأداء فريضة الحج عام ١٨٢٥م اصطحبه معه نظرا لما يتسم به من نباهة في العقل والفطنة في الإدراك الى جانب معارفه وشجاعته، وخلال الرحلة استطاع الأمير عبد القادر الجزائري أن يتعرف عن كثب على تونس ومصر وأرض الكنانة ومكة والحجاز، وبعد رجوعهما عرج لزيارة الشام

---

[١] هنري كلود ترجمة محمد غتاني، الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، مكتبة المعارف، مصر، د، ت، ص١٣٦.

[٢] يحيى، أبو عزيز، الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٢.

[٣]يحيى، أبو عزيز ، ص١٥.

وأقام بدمشق عدة شهور تمكن الأمير خلالها من حضور المناقشات والحلقات الدراسية العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء بالجامع الأموي وغيره[١].

ومن هناك توجه إلى العراق ونزل ببغداد عاصمة الرشيد وزار المكتبات ودور العلم وأتاحت له فرصة الإطلاع على أنظمة البلدان العربية وسير حياتها في الحكم الإداري، ومختلف الميادين السياسية والعسكرية والاجتماعية.

ولم يمض وقت طويل حتى شنت فرنسا عدوانها على الجزائر العاصمة بدعوى الاقتصاص من حادث المروحة المفتعل، وبعد وقائع مهوله دامت (٢٢) يوما تمكنت فرنسا من احتلال الجزائر على الرغم من أن الشعب كان ثائرا يريد الدفاع عن الوطن، إلا أن الوالي العثماني (حسين داي) أرخ العنان واستسلم لفرنسا بشروط مجحفة بالشعب الجزائري[٢].

ومن هنا فكر الوهرانيون باختيار شخص يقود نضالهم ضد الاستعمار الجديد وإسنادهم إليه أمور بلادهم فوقع اختيار الشعب على الأمير عبد القادر الجزائري وبايعه عامة الشعب فقبل البيعة وخرج بجيش جرار إلى حاميه (معسكر) وجعلها ميدانا لقواته، وبعد ذلك نادى الأمير في الشعب للجهاد لمحاربة الفرنسيين ولعب دورا هاما في توحيد الجماعات المتفرقة.

ونازل الفرنسيين وانتصر عليهم في أغلب الوقائع خصوصا في مدينة وهران حيث أبلى فيها البلاء الحسن، وللانتصارات الملاحقة للأمير وعبقريته ودهائه وحكمته فإن سمعته بلغت بها الجزائر كلها بل المغرب العربي كل وازدادت بعد أن عقدت فرنسا اتفاقية (دي بشل) التي بموجبها اعترفت بعبد القادر أميرا على وهران[٣].

وبعد عقد المعاهدة انصرف عبد القادر الجزائري إلى تحسين أوضاع البلاد وجعل تمصيرها وتعميرها الأمر الأساسي لنجاح الثورة وتركيز الحكم فيها، ولذلك سارع إلى تشييد الحصون وإقامة القلاع وبدأ بتصنيع السلاح وإنتاج الذخيرة الحربية ووحد الجماهير وأنشأ دولته فتية وأعيد الدستور[٤].

لم يمهل الاستعمار الفرنسي عبد القادر الجزائري فترة لإصلاح وضع البلاد فعمدت إلى نقض المعاهدة بجملة من الأكاذيب وذلك لغرض السيطرة الفرنسية على القبائل ولم يجد إلا طريق واحد مع المستعمرين ألا وهو إعلان الجهاد، وقد استجاب الناس لندائه وجرت جولات وصولات في الميدان لقن خلالها الفرنسيين درسا بليغا على الرغم من تفوق الفرنسيين في العدة والعدد، وهكذا توالت انتصارات الأمير في حين منيت فرنسا بالهزائم المنكرة ووقعت سلسلة معارك متفرقة كان للأمير عبد القادر الجزائري فيها النصر الباهر حتى أدركت فرنسا إنها لا تستطيع قهر هذا المناضل فعقدت معاهدة (تافته) التي اعترفت فرنسا بموجبها بالإمارة لعبد القادر الجزائري على وهران وتيطرى ومزغان حتى شريط البحر، فكانت هذه المعاهد اعتراف صريح بالأمير وإماراته التي أصبحت تشمل ثلاثة أرباع للجزائر وكانت فرصة للأمير لبناء بلاده وتأديب الخونة والانتهازيين[٥].

وكعادة الدول الاستعمارية تحاول نقض عهودها وبينما كان الأمير عبد القادر الجزائري يصلح البلاد ويؤسس البناء أعلنت فرنسا الحرب ضده، وكان عليه أن يحشد الجيوش ويعلن الجهاد ضد المستعمرين وهاجم المستعمرين وأعوانهم في تيجان وكبدهم خسائر فادحة حتى استنجد القائد الفرنسي (بيجو) بدولته لترسل إليه أكثر من (٨٠) ألف من الجنود ومعدات كثيرة ولكن هذا الأمر لم ينل من عزيمة الأمير ومقاتلته فقارع المستعمرين بشدة، وبعد أن كثرت نجداتهم استطاع الفرنسيون احتلال بعض المناطق عام ١٨٤٣م وارتكبوا مجازر رهيبة ضد الأطفال والنساء والشيوخ[٦].

وبعد هذه الواقعة التجأ الأمير إلى بلاد المغرب الأقصى في الريف ورحب به أهلها حتى أنهم طلبوا منه أن يكون أميرا عليهم، غير أنه رفض، وحاولت فرنسا إقناع سلطان مراكش تسليم أو طرد الأمير من بلاده ولكنه رفض ووقف إلى جانب عبد القادر الجزائري، فحملت فرنسا بأسطولها البحري لضرب مراكش وإجبارها على تسليم الأمير إلى أنه

---

[١] يحيى، أبو عزيز ، ص٢٢.

[٢] الأمير محمد، عفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، مطبعة الإسكندرية، القاهرة، ١٩٠٣، ص١٠١.

[٣] كارل بروكان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: منير البعلبكي، مطبعة الملايين، بيروت، ١٩٦٤، ط٣، ص٤٢١.

[٤] المصدر نفسه، ص٤٢١.

[٥] الأمير محمد، تحفة الجزائر، المصدر السابق، ص٨٦.

[٦] شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة سعد الله أبو القاسم، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢، ص٥٤.

غادرها عام ١٨٤٤م ودخل أرض الوطن حيث جمع الأهالي وأنصاره وهاجم الفرنسيين واستطاع تحقيق عدد من الانتصارات الهامة منها فتح جبال جرجرة، غير أن القوات الفرنسية الكبيرة استطاعت إجباره على الانسحاب الى وهران ثم الى مراكش غير أن سلطان مراكش وبناء على طلب من الفرنسيين جهز جيشا جرارا قوامه (٥٠) ألف جندي للقبض على الأمير عبد القادر الجزائري الذي استطاع سحق جيش المغاربة اضطرارا[١].

غضبت فرنسا لانتصارات الأمير عبد القادر الجزائري وجهزت جيوشا هائلة لمطاردة الأمير وألفتك بالشعب الجزائري بدون تميز بين مقاتل أو مدني رجل وامرأة لغرض إرهاب الجزائريين ولاسيما عبد القادر وأنصاره، ولكن فرنسا عجزت عن تحقيق أي نصر على قوات الأمير لما كان يتمتع به من حسن تخطيط وكفاءة عالية وصلابة قوة، حتى راحت تتآمر مع القوى الداخلية والخارجية ضد الأمير عبد القادر الجزائري[٢].

عمد الأمير بعد انتصاراته إلى مهاجمة القوات الفرنسية بشكل خاطف حيث كان يعتمد في حربة على الهجوم المباغت وحرب العصابات والكمائن فهاجم برج رأس العيون التي تتمركز فيها القوات الفرنسية فسحق ثلاثة ألوية منها ثم خاض معركة كبرى مع بيجو وسحق القوات الفرنسية وأسر أكثر من ٩٠٠ فرنسي ثم قاتل في واقعة (عين تيموشن) وأسر القائد الفرنسي (لاموريسير) ومعه ٥٠٠ جندي ورجال الأمير في أنحاء الوطن ينتقل من هنا وهناك ويدمر قطعات العدو جعلت أصوات الرأي العام الفرنسي تطالب القوات الفرنسية الجلاء من الجزائر للخسائر الباهضة التي تكبدتها، وهكذا أذاق الأمير عبد القادر الجزائري الاستعماريين كؤوس المرارة وأعطاهم درسا بليغا في المقاومة[٣].

وإذا كانت هناك عوامل كثيرة دولية وإقليمية أجبرت الأمير عبد القادر الجزائري على الاستسلام فإن الأكثر تأثيرها على حركة الأمير هو انتشار الهيمنة الاستعمارية على الدول في الشرق والغرب والاتفاقيات الدولية بين القوى العالمية لتقسيم النفوذ في ممتلكات العالم وهذا ما يؤكده عدم وقوف أي قوة أو أصوات دولية مع قضية عبد القادر الجزائري التي هدفها الأول والأخير تحرير البلاد من الفرنسيين، ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الأمير منشغل بتعمير البلاد وتقوية صفوف الشعب وتنظيم كتائب الجهاد وتكوين فصائل الجند من أجل حركته التحررية كان ملوك العرب وسلاطين المسلمين منشغلين بلعب الشطرنج في قصورهم وسط الجواري تاركين الأمير وغير منصتين الى دعواته بتقديم المساعدات للثورة[٤].

كل هذه الأسباب المباشرة وغير المباشرة دفعت الأمير الى الاستسلام الى القوات الفرنسية في الوقت الذي وقف الكثير من أحرار فرنسا ضد السياسة الفرنسية في الجزائر يدافعون عن الأمير وشعبه وبذلك فإن رحلة الأمير العسكرية وجهاده لا يمكن أغنائها بسطور أو كتب.

المشكلات السياسية والاجتماعية

أن الإحاطة بكل المشكلات السياسية والاجتماعية التي أخرت بمعظمها العمل الثوري الدءوب لدحر المستعمر، وتحقيق الاستقلال والحرية منذ دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، ولغاية زوال بعضها بزوال الاستعمار واستقلال الجزائر أمر في غاية الصعوبة، مما دفعنا إلى تقسيم المشكلات السياسية والاجتماعية إلى حلقات مترابطة في سلسلة واحدة هي التاريخ.

هناك أربع حلقات مهمة كان لها الدور الحاسم في تخدير الشعب الجزائري وتنويمه وتجويعه وتشريده وحصر كل أفكاره واهتماماته في المحافظة على وجوده وأصالته، ، وهذه المشكلات السياسية والاجتماعية يمكن أن تتمثل في الحلقات الآتية:

١. الحملة الاستعمارية على الجزائر، أسبابها ودوافعها.
٢. حرب الإبادة وأشهر حملاتها.

---

[١]شارل هنري تشرشل ، ص٥٤.
[٢] عبد الجليل النعيمي، بحوث ووثائق في تاريخ المغرب، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧، ص٢٢.
[٣]المصدر نفسه ، ص١٢٦.
[٤] نفسه، ص١٢٦.

٣. نهب الأراضي وتوزيعها على المعمرين من المجرمين وشذاذ الأفاق وما نتج عنها من مجاعة وأمراض.
٤. الأحزاب السياسية والحركة الوطنية، واستقطابها للعلماء وأصحاب الفكر وإلتفافهم حولها.

-الحملة الاستعمارية على الجزائر، أسبابها ودوافعها:

قررت الحكومة الفرنسية برئاسة بوليناك في كانون الثاني عام ١٨٣٠م إرسال حملة لغزو الجزائر واحتلالها، ولكي تقدم فرنسا حجة نافذة ودامغة عمدت الى التركيز على السبب الثاني بالنسبة الى الرأي العام الأوربي ولكن هذين السببين لم يكونا وحدهما بل هناك أسباب أخرى كانت وراء الدافع الى إستعمار الجزائر لأنها من اختصاص رجال التاريخ، وهي موزعة في كتبهم: ((نزلت طلائع الحملة الفرنسية في سيدي فرج في ١٤ حزيران ١٨٣٠م، ولم تسقط الجزائر في يد المستعمرين إلا بعد انهزام قوات الداي وإمضائه بنود التسليم في ٥ تموز ١٨٣٠م ولكن أبناء الشعب الجزائري لم يبلوا أبداً بالهزيمة فاستمرت المعارك باستمرار المقاومة على كل المستويات الاجتماعية))[١]

فمنذ اليوم الأول الذي وطئت فيه أرجل المستعمرين الأرض الجزائرية وجدوا أنفسهم أمام مقاومة شعب يختلف عنهم في اللغة والدين والعادات والتقاليد ودرجة الحضارة، مما ساعد على شدة المقاومة السياسية والعسكرية من جانب أبناء الشعب الجزائري.

وبعد سياسة الدمج والتذويب طبقت الدولة الاستعمارية، تذويب فرنسا للجزائر ودمج الشعب الجزائري في الكيان الفرنسي معتمدة على قرارها المشهور الصادر عام في عام ١٨٣٤م الذي عد الاحتلال حقيقة واقعة والجزائر مستعمرة فرنسية، ولكن على الرغم من ذلك لم تنجح في تقريب طبيعة المجتمع الجزائري من طبيعة المجتمع الفرنسي بل على العكس عمقت أصالة الواقع الوطني القومي الجزائري بوضعها سكاناً من أصل أوربي مقابل السكان الأصليين أصحاب البلاد، وذلك بإنشائها هيكلاً سياسياً معداً لوضع الجزائريين العرب المسلمين في مستوى دون مستوى المستوطنين من غير العرب المسلمين[٢].

وقد نهج المستعمر نهجاً حقق له في نهاية المطاف السيطرة شبه الكاملة على الجزائر. ويتلخص هذا النهج، في إنشاء إدارة فرنسية وفي كبت حريات الشعب الجزائري وتحطيم معنوياته، والعمل على تفتيت وحدته، ومحاولة إقناعه بتبعيته ((وكان للإدارة الفرنسية الحكم المطلق في رقاب أبناء الشعب الجزائري واستمر هذا المنهج قائماً حتى نهاية عام ١٩٤٧م))[٣] وقد شاركت طبقة (الكولون)* بعد نموها وتقدمها الاقتصادي الحكومة الفرنسية في حكم الجزائر، وانتقلت السلطة تدريجياً من يد الاحتكاريين والعسكريين إلى يد (الكولون) عام ١٨٧١م وفي هذه السنة بدأت مرحلة الإدارة المدنية للجزائر، وقسمت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات فرنسية هي: قسنطينة – والجزائر – ووهران، وفي نهاية هذه السنة التي شهدت إخفاق ثورة الفلاحين، أصدر الاستعمار قانون الأهالي (الأنديجانا)[٤] البغيض الذي يعد الجزائريين مواطنين فرنسيين من الدرجة الثالثة، ووسعوا من صلاحيته بعد ثورة ١٨٨١م وكان هذا القانون أقسى إجراء وأبشع إجرام في تاريخ الاستعمار الحديث واستمر العمل به حتى عام ١٩٤٧م[٥].

وخلاصة القول: إن احتلال الجزائر أحدث هزة شديدة في الأوساط الاجتماعية والفكرية الجزائرية، بسبب ما صاحبه من أعمال ضغط وقسر واستيطان أجنبي من جهة ولاختلاف العادات والتقاليد بين المجتمع الجزائري المسلم، والمجتمع الأوربي المسيحي من جهة ثانية، وضاعف من تأثيره زيادة حدة الاختلاف والتناقض، أن الموجة الأولى من

---

[١] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣٠ – ١٩٤٥، الجزء ٣، الاداب، بيروت، ١٩٦٦م. ، ص ٢١، ٨٩.

[٢] هنري كلود ، المصدر السابق، ص ١٣٦.

[٣] حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي ، الجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م. ص ٣٦.

* الكولون وظيفة ذات توجهات استعمارية.

[٤] هذا أبشع قانون سنه الاستعمار وطبقه على الجزائريين.

– وقد تمثل في القهر والزجر وتحميل الشعب بالضرائب مصادرة أراضي كل منطقة تجري فيها ثورة من الثورات، وبموجب هذا القانون صادر الاستعمار نـصف مليون هكتار من أراضي الفلاحين بعد ثورة ١٨٧١.

[٥] حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص ٣٧.

الأوربيين التي قدمت إلى الجزائر كانت موجة مغامرة منحطة الأخلاق، برجالها ونسائها حيث مارست حياة الدعارة والسكر علنا إلى درجة هددت تقاليد المجتمع الجزائري بما جاءت به من آفات اجتماعية غريبة عنه.

ومن ثم يمكننا القول أن هذه المرحلة التاريخية الأولى من سنوات الاحتلال الفرنسي والمقاومة الجزائرية قد ولدت أدباً حمل في داخله كل خصوصيات المرحلة ذاتها إلا أنه أقتصر على الجانب الشعري والأدب الشعبي بجميع أجناسه وموضوعاته ولاسيما الجانب الخاص ببطولات الأسلاف الخالدة وغزواتهم وثوراتهم. ولعل السبب في ذلك يعود إلى كون هذه الأجناس الأدبية، أقرب الى إلهاب حماسة الجماهير وتحريضها لتثور على المستعمر، كما أن هذه الأجناس الأدبية الشعبية الى جانب الشعر الفصيح أكثر الفنون الأدبية التصاقاً بذاكرة الشعوب وطريقة إيصالها أسهل وفهمها والتفاعل معها أبسط وأقرب الى الأذهان والإفهام بخلاف الرواية التي تتطلب وقتاً أطول وفهماً أوسع من الأديب والقارئ على حد سواء، وخير من يمثل هذه المرحلة الأولى من وجود الاستعمار في الجزائر الأديب والفيلسوف والشاعر الأمير عبد القادر[١].

أ- حرب الإبادة وأشهر حملاتها

سطرت فرنسا في الجزائر صفحة سوداء في تاريخها الحديث فقد قرر (الجنرال بيجو)[٢] القائد العام لجيش الاحتلال تطبيق سياسة الأرض المحروقة والعمل على إبادة الشعب الجزائري[٣] وكانت حملات الإبادة قد بدأت فعلاً منذ دخول الجيش الفرنسي الى الجزائر تحت قيادة الجنرال (روميجو) حاكم الجزائر العسكري قبل مجيء (بيجو) الى الحكم عام ١٨٤١م، ففي عام ١٨٣٢ أعطى القائد (روميجو) أوامره للجند بمداهمة قبيلة العوفية ليلاً وإبادتها عن آخرها وتحت شعار الأرض المحروقة نجح (بيجو) في إضعاف المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر مما جعل الأمير يستسلم عام ١٨٤٧ بعد حرب وطنية قومية دامت سبعة عشر سنة وفي عهد حكم (بيجو) كتب أحد قادة حملة الإبادة قائلاً: كنا نكتسح ونهدم ونحرق وننهب وندمر كل شيء... ((كنت أحرق كل شيء أصادفه في طريقي، ونزلت في البليدة وأفنيت هذه القرية الجميلة... عن بكرة أبيها))[٤] ثم يضيف قائلاً: ((ان النساء اللواتي نأسرهن كنا نحتفظ ببعضهن بمثابة رهائن ونبيع الاقي لقاء الجياد أو نبيعه بالمزاد كما نفعل بالمواشي، وكنت أحياناً أفرج همومي بقطع... رؤوس الرجال))[٥] ثم يقول أحدهم: ((لقد كان الزوج من أذان الوطنيين الجزائريين يساوي عشرة فرنكات وكانت نساؤهم طرائد فاخرة في نظرنا، والواقع أننا عدنا وعندنا برميل مليء من الأذان التي جمعناها زوجاً فزوجاً من ألأسرى))[٦].

واستمرت حملة إبادة الشعب الجزائري من يوم دخول الجيوش الفرنسية للجزائر ولغاية الاستقلال عام ١٩٦٢ وكانت هذه الحملات تتزامن وتشتد باشتداد الثورات والانتفاضات الشعبية ومن أشهر حملات الإبادة نذكر الحملة التي صاحبت وأعقبت ثورة ((لا لا فاطمة))* بجبال القبائل عام ١٨٥٧ فلم يسلم من هذه الإبادة في هذه الحملة إلا الأطفال[٧].

ثم كانت ثورة الفلاحين التي تزعمها المقراني عام ١٨٧١ فازدادت حملة الإبادة شراسة وانتشارا في أغل جهات الوطن، ثم كانت انتفاضة ١٩٤٥ التي جاءت لتؤكد للمستعمر أن الشعوب مهما سكتت على الظلم والقتل والتنكيل فهي لا تلبث أن تثور لدحر الاستعمار بمختلف أشكاله وأنواعه. وقد أباد الاستعمار الفرنسي خلال هذه الحملة خمسة وأربعين ألفاً

---

(١) حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي ، المصدر السابق فسه، ص ٣٧.

(٢) كان الجنرال بيجو يرى إن الاحتلال الجزائري لا طائل من ورائه ورأى بأن احتلال الجزائر يجب ان يتم باستعمال طريقة الأرض المحترقة، وبعد أن عين حاكماً عاماً على الجزائر أعطى جنوده الأوامر بخلق جو من الرعب تتحول معه الحياة المادية للجزائريين إلى جحيم، وكانت أوامره اليومية: حرق المحاصيل الزراعية وإبادة كل الرجال القادرين على حمل السلاح وحجز النساء والأطفال إما رهائن وإما للبيع للحصول على الخيول، مع حرق وخنق قبائل كاملة بالنار والدخان في الكهوف.

(٣) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ، ص ٢٧.

(٤) ليون فكس، الجزائر حتف الاستعمار، ترجمة محمد عتاني ، مكتبة المعارف، بيروت، ص ٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ١٣، ٥٦.

(٦) نور سلمان، الأدب الجزائري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣٥؛ دبوز محمد علي، ضة الجزائر وثور ا المباركة، الجزائر ١٩٦٥، ج ١، ص ١١.

* مصطلح (لا لا فاطمية) المقصود ا الثورة التي قامت عام ١٨٥٧ ضد الغزو الاستعماري الفرنسي وقامت ا امرأة تدعى فاطمة الجزائرية.

(٧) قام ((كالكاردينال لا فيجري)) ورجاله من الآباء البيض بجمع الأطفال الأيتام في ملاجئ لتربيتهم على الدين المسيحي وما يزال أحفاد الإبادة مثل عين الحمام بمنطقة القبائل وبني عباس بالصحراء. أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص ١٠٤.

من الجزائريين الأبرياء خل أسبوع واحد وهو مدة الانتفاضة بمناطق الشرق الجزائري. أسهمت هذه الانتفاضة الشعبية في بلورة الرؤى السياسية للحركة الوطنية، ووضعتها وجهاً لوجه أمام محك التجربة السياسية القاسية مع الاستعمار ((فخلقت لدى رجال الحركة الوطنية بجميع اتجاهاتهم السياسية، الشعور بضرورة الوحدة الوطنية والوطن المستقل))(١) وترجم هذا الشعور في ثورة الفاتح من (نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٥٤.

وخلال سبع سنوات ونصف، مدة سنوات الثورة التحريرية عرف الشعب الجزائري أبشع أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الجماعي في تاريخ الثورات التحريرية في العالم حيث استشهد مليون ونصف مليون شهيد وقد ((جاء في مقال الصحفي الانجليزي جون جبتل أن متوسط عدد القتلى من الجزائريين في الأشهر الأربعة الأولى من سنة ١٩٥٧ زاد على ستمائة وألفي قتيل في الشهر الواحد))(٢) وازداد هذا العدد ارتفاعاً بشكل رهيب بعد سنة ١٩٥٧م حيث ازداد اشتعال الثورة شمولية وانتشاراً في كل أنحاء الجزائر بل في كل شبر منها، وقد زاوج الاستعمار في إبادته للشعب الجزائري بين الإعدام الجماعي، والتعذيب الجهنمي، والتفنن في هتك أعراض النساء. ومن صور التعذيب والتنكيل وهتك العرض والقتل الجماعي، التي كانت تحدث يوميا في كل أنحاء الجزائر على يد جنود الاستعمار الفرنسي وسيما رجال المضلات الذين: كانوا يحاولون انتزاع الاعترافات من أفواه المعتقلين والمعتقلات بتطبيق وسائل التعذيب الجهنمية، التالية كان زبانية التعذيب يأتون بالمعتقلة بعدما يتمتع بها حثالات جندهم فيجردونها من ثيابها ويربطون أطرافها بالحبال على أخشاب أعدت لهذا الغرض ثم يلصقون الملاقط الموصلة بالتيار الكهربائي في الأماكن الحساسة من الجسم بدءا من الأذان والأصابع مرورا بحلمات الثديين وانتهاء بالأعضاء الجنسية، ويطلقون التيار الكهربائي على جرعات متتالية ثم يطلقونه باستمرار حتى تتيبس الأعضاء، ويتم الإغماء ويكررون العملية عدة مرات، يتوقفون ريثما يزايل المعذبة الإغماء ثم يعاودون العملية، الى أن تفقد المعذبة القدرة على الحركة أو تموت(٣)، ومثلما كانوا يفعلون بالنساء كانوا يفعلون بالرجال.

وهناك أنواع أخرى من التعذيب، وكانت شائعة وقت الثورة مثل مأسورة الماء، والماء والصابون، ثم دفن الأشخاص أحياء، في حفرة أعدت لهذا الغرض مع إبقاء رؤوس المعذبين معرضة لوهج الشمس، وبالقرب منهم صفائح الماء، ويتركونهم على هذه الحال حتى الموت وغالبا ما يعدمونهم بعد اليوم الثالث من التعذيب في أحيان أخرى توزع بنات الوطنيين ونساؤهم على حثالة الجنود الفرنسيين للاستمتاع بهن بحضور أقربائهن، وكل ذلك من اجل انتزاع الاعترافات من الوطنيين والثوريين، – التي تفيدهم في القضاء على الثورة، حسب زعمهم – والعمل على خلق جو من الإرهاب، في أوساط الشعب الجزائري، قصد القضاء على الثورة ولكن خاب ظنهم وحبطت أعمالهم.

كل هذه الأفعال والأعمال الوحشية التي ابتدعها رجال جيش الاستعمار الفرنسي جعلت من النازيين أقزاماً إذا ما قيسوا بأسيادهم الفرنسيين في ميدان التعذيب والقتل الجماعي وهتك العرض وإتيان كل المحرمات الإنسانية.

ب- –نهب الأراضي وتوزيعها على المعمرين:*

وحتى يتم للاستعمار الفرنسي السيطرة الكاملة على الجزائر كان لابد له من أن يسيطر على الأرض وعلى الإنتاج الزراعي وقد بدأ اغتصاب الفرنسيين للأرض منذ العام الأول للاحتلال، ففي ٨ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٣٠ صدر قانون تصادر بموجبه لحساب الدولة الجديدة ملكية القادة الأتراك وملكية الأوقاف، وتتضح خطورة هذا القرار إذا ما

---

(١) سعاد محمد خضر، ص ٢٦.

(٢) ينظر: حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) المسألة لهنري: ترجمة أديب مروة، ط ٣، دار النشر للجامعيين، لبنان ١٩٥٨. من أشهر النساء اللواتي عذبن بمثل هذا النوع من التعذيب وغيره من الأنواع الأخرى التي لم نحصيها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر لأن الحصر في مثل هذا الموضوع يتطلب منا القيام بدراسة ميدانية لكل التراب الجزائري للقيام بإحصاء عدد المناضلات والفدائيات، والشاهدات اللواتي أسرن، وعذبن وما زلن على قيد الحياة – من هؤلاء جميعا نذكر -جميلة بوحيرد – جميلة بوباشا – جميلة بوعزة – نسيمه حبلال – رويدة مداد، ومريم بوعترة وغيرهن كثيرات جداً لأنهن بلغن الآفا مؤلفة في المدن والقرى والبوادي الجزائرية.

ينظر: سهيل أدريس، التعذيب والشرف، مجلة الآداب، عدد ٦، بيروت، حزيران عام ١٩٥٧، ص ١٤؛ بوطمين الأخضر جودي، لمحات من ثورة الجزائر، الجزائر ١٩٨١م، من ص ٢١٩ الى ٢٢٣.

* المعمرين، بالمفهوم الجزائري تعني المستوطنين من الفرنسيين أي الكولون وذلك بخلاف ما تعنيه في اللغة العربية من دلالة على كبار السن الذين يعيشون طويلاً.

ذكرنا أن جزءا كبيرا من الملكي الصفارية، كان موقوفا للخدمات الدينية والخيرية، فمصادرته حققت للاستعمار الفرنسي هدفين أولهما: أنه استولى على جزء كبير من الأرض والآخر أنه حرم الخدمات الدينية والخيرية من مصادرها، وأخضعها للسيطرة المباشرة[١]. وتتابعت القوانين التي تزيد ملكية الدولة توسعا فصدر قرار عام ١٨٣٢ يقضي بأن تعود لها كل أرض لا يستطيع صاحبها أن يثبت ملكيتها بعقد ((واستمر الاستعمار بعد ذلك تحت ستار تحديد الملك العام أو ((الدومين)) في سرقة الأراضي فكان قانون ((أكتوبر)) تشرين الأول عام ١٨٤٤م، ثم أتبعه بقانون ٣١ تموز (يوليو) سنة ١٨٤٦م الذي يقضي بتمليكه الأرض التي تقيم فيها القبائل الرحالة، فأصبحت الأكثرية العظمى من سكان الجزائر تعمل في أراضي الدولة كأجراء))[٢].

وفي عام ١٨٥١م أصدر الاستعمار قانونا يقضي بأن الدولة تملك مائتي ألف هكتار من الغابات وواحد وستين ألف هكتار من أراضي العرش ((ولم يكتف الاستعمار بالمصادرات السابقة فقد كانت ولا تزال هناك مساحات كبيرة من الأرض في أيدي الجزائريين، فاكتشف... لها لونا جديدا من السرقة عرف بسياسة تحديد ملكية القبائل))[٣].

ثم كانت ثورة الفلاحين الجزائريين الشهيرة عام ١٨٧١م التي جعل منها المستعمر حجة لسلب أراضي الثوار بلا قانون ووزعها على المعمرين الفرنسيين مثلما فعل بالأراضي التي اغتصبها قبل هذا التاريخ.

وبهذه القوانين والإجراءات التعسفية الظالمة حرم أبناء الشعب الجزائري من أفضل الأراضي الصالحة للزراعة، وبذلك مزق المستعمرون الأراضي، وهدموا توازن الزراعة الوطنية التي كانت مزدهرة قبل دخول الاستعمار فراح الفلاحون يبحثون عن أراضي جديدة في الأحراش والغابات حيث تقل خصوبة الأرض ويشح الإنتاج مما أدى الى تتابع سنوات القحط والمجاعة، فأهلكت آلافاً مؤلفة من أبناء الشعب الجزائري. وأشهر مجاعة عرفها تاريخ الشعب الجزائري في ظل الاحتلال كانت عام ١٨٦٦م حيث بلغ عدد ضحاياها نصف مليون جزائري ولكي يحقق الاستعمار فكرة الاستيطان، بذل جهدا كبيرا منذ اليوم الأول للاحتلال في إسكان الأوربيين بالجزائر وإمدادهم بأراضي الوطنيين المغتصبة، وقد اعترضته صعوبات كبيرة، فلم يكن الوضع العسكري أو السياسي في الجزائر قد استقر على حال ولم تكن الخدمات الصحية بالقدر الكافي الذي يحمي الأجانب الذين لم يألفوا المناخ الجديد، وعلى الرغم من ((فتح أبواب الهجرة فأن عددهم ظل قليلا ولم يزد في سنة ١٨٣٩ على (٢٥٠٠٠) كان منهم (١١٠٠٠) فرنسي فقط، وبلغت الحال بالاستعمار الفرنسي حد اصطياد المهاجرين وتوطينهم في الجزائر، ثم كان ترحيل المسجونين وغير المرغوب فيهم سياسياً بعد ثورة ١٨٤٨، وفي أعقاب ثورة الكومون* سنة ١٨٧١... هاجر إلى الجزائر كثير من سكان الألزاس واللورين الذين تمسكوا بفرنسيتهم بعد ضم هاتين المقاطعتين إلى ألمانيا أثر الحرب السبعينية))[٤] ومهما يكن من أمر فأن (الكولون) المعمرين الأجانب لم يبدءوا في الاستقرار وفي الزيادة العددية إلا بعد دخول رأس المال الفرنسي واستثماره في الجزائر وقد نتج عن تدفق رؤوس الأموال الفرنسية تركيز الملكيات الكبيرة في أيدي قلة من الأجانب وتفتيت الملكيات الصغيرة، وهذا التقطيع، والتفتيت شمل أغلب الأراضي الصالحة للزراعة مجبرا الفلاحين الجزائريين على البحث عن أراضي أخرى قليلة العائدات ومن ثمة يمكننا القول أن الاستعمار قد مزق الأراضي وهدم توازن الزراعة الوطنية، وهكذا أصبح أصحاب الأراضي لا يعودون إليها إلا بوصفهم عمالا إجراء، لا يتقاضون عن عمل يوم كامل ((إلا (١٥٠) مئة وخمسين فرنكا وثمة نساء وأطفال في سن التاسعة من أعمارهم يتقاضون أجراً، يتراوح بين (٤٠) أربعين و(٧٠) وسبعين فرنكا في حين أن سعر الخبز (٤٧) سبعة وأربعون فرنكا للكيلو، والسكر (٩٤) أربعة

[١] ينظر حمدي حافظ، ومحمود الشرقاوي، الجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة، ص ٢١، ٢٢.

[٢] المصدر السابق نفسه، ص ٢٢.

[٣] المصدر نفسه، ٢٣.

* ثورة الفلاحين الجزائريين عام : وهي من احدى الثورات التي قام ا الشعب الجزائري ولاسيما طبقة الفلاحين رداً على السياسة الفرنسية الـتي كانـت تريـد الاستيلاء على الاراضي الجزائرية من خلال السيطرة على اراضي الثوار لغرض القضاء على المقاومة و دف الاستيلاء على الاراضي الجزائرية لتصبح ارضاً وشية.

[٤] ينظر حمدي حافظ، ومحمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص ٢٤.

وتسعون فرنكا للكيلو))[١] ومن هذا العرض الموجز لسياسة الأجور التي كانت متبعة من العمال الأجراء الجزائريين يتبين أن عمل الطفل أو المرأة ولمدة يوم كامل لا يكفي لشراء كيلو من الخبز ولذلك فإن غذاء أغلب الأسر الجزائرية بين ١٨٧١ و ١٩٥٢ كان يقتصر على بعض الأقراص من خبز الشعير أو (الشوفان) في اليوم هذا في السنوات العادية أما في سنوات الجفاف والمجاعة فأن أكثرية الأسر تقتات من أوراق الأشجار وعروقها، ومن بعض الحشائش[٢]، وقد وصف أحد الكتاب الفرنسيين الحالة الاجتماعية للشعب الجزائري خلال سنوات الحرب الكبرى قائلاً: ((لقد عشت في مدينة الجزائر فترة طويلة وقد رأيت فرقا من الأطفال في أسمال بالية يجنون قوت يومهم ابتداء من سن الخامسة، ببيع الجرائد ومسح الأحذية ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية، وهي أماكن تعتبر عارا على الحضارة وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثاً عن العمل ينامون في الليل في الحفر، ويتغذون ببعض حبات من التمر أو من العنب. لقد كنت خجلا من كوني فرنسيا أنني كنت في الجزائر سنة ١٩٤٥ في وقت المجاعة عندما كان آلاف الناس يموتون جوعا خلال سنة من الجفاف، وقد شاهدت القمع المروع الذي نتج عنه موت ستين ألف شخص وشاهدت أطفالاً عمرهم سنة واحدة يأكلون التراب، كما شاهدت مئتي شخص يموتون من الملاريا في بعض أيام بغرداية...))[٣] هكذا كانت الجزائر في عهد الاحتلال تعاني من المجاعة والأمراض والأوبئة التي كانت تعاود زيارتها للشعب الجزائري بعد كل مجاعة فتفتك به فتكا رهيبا ومن أشهر سنوات المجاعة ((مجاعة سنة ١٨٣٩ ومجاعة سنة ١٨٦٦ المصحوبة بموجة من الجراد، ومجاعة سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٧ ثم مجاعة سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٥))[٤] وهذه الموجات من المجاعة المصحوبة بالأوبئة والأمراض أدت الى هلاك ألآلاف المؤلفة من أبناء الشعب الجزائري[٥].

وخلاصة القول: أن حرمان جماهير الفلاحين من أرضهم الخصبة المنتجة لأوفر الغلال والحبوب وحرمانهم من وسائل الحياة الحرة الكريمة مثل الغذاء والعمل والسكن والتعليم والعلاج، أدى بالشعب الجزائري الى الحدود النهائية للاستعباد والشقاء والإملاق، وهي الدائرة الأخيرة من جحيم استغلال الاستعمار الفرنسي لأبناء الشعب الجزائري. ومن ثم يمكن القول أن المشكلات السياسية والاجتماعية السابقة الذكر قد عملت على حرمان الشعب الجزائري من كل نعم ومقومات الحياة والاستقرار والبقاء ولم يبق أمامه إلا الثورة وسيلة لإزالة الغبن والقهر عنه ولكن هذه الأخيرة لم تأت بما كان مرجوا منها لأن رد الفعل الفرنسي على كل الثورات كان متمثلاً في عملية الإبادة الجماعية لأبناء الشعب الجزائري ولم تأت هذه الثورات أكلها إلا بعد مئة وثلاثين سنة من المعاناة والقهر والمرض والجهل والجوع والمسخ والإبادة الجماعية، ومن ثم لم يبق أمام أبناء هذا الشعب من الوقت والإمكانيات والحوافز ما يكفي للتفكير في الإشباع الثقافي والارتواء الأدبي وحتى عندما توافرت بعض الوسائل والإمكانيات، ولم تنل الرواية حظها من الاهتمام مثل ما نالت الأجناس الأدبية الأخرى وذلك راجع للأسباب المذكورة آنفاً.

المبحث الثاني

التنظيم الإداري والعسكري لدولة عبد القادر الجزائري

كانت فترة السلام القصيرة التي عرفها الأمير عبد القادر في ظل معاهدة تافنه فرصة لتوليد دعائم الأمن والنظام في البلاد، ولتنظيم تحصيل الزكاة والضرائب وتوفير الموارد المالية الضرورية لقيام الدولة بمهامها.

ولكنها كانت أيضا فرصة لتبلور روح التعاون والتضامن القومي ولتجلي عبقرية الأمير في تكوين مختلف أجهزة الدولة وتوجيهها وربط العلاقات الإنسانية بين المشرفين على هذه الأجهزة للعمل في انسجام، فقد كون منذ مبايعته في

---

[١] هنري كلود... ترجمة محمد عتاني، المصدر السابق، ص ٤١. كان عمل اليوم الواحد، يبدأ قبل طلوع الشمس وينتهي قبل غروبها وبعبارة أدق ينتهي عندما تصبح الدنيا كلها ظلام وأجرة هذا العمل المضني الشاق لا تكفي لسد رمق الإنسان من الجوع.

[٢] أخذ الباحث هذه المعلومات من كبار السن في ثلاث محافظات هي ((البويرة – والمدية – والبليدة)) وكلهم أجمعوا على أن أغلب الجزائريين في الأرياف والبوادي وحتى المدن كانوا يموتون جوعاً ولا يقتاتون إلا على أوراق الشجر والنباتات من الحشائش والأعشاب.

[٣] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣٠ – ١٩٤٥، المصدر السابق، ص ٢٠٤.

[٤] د. نور سلمان، الأدب الجزائري، المصدر السابق، ص ٤٤.

[٥] حمدي حافظ، ومحمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص ٣١.

سهول أغريس نظاما هرمي الشكل للحكم والإدارة يتسم بالبساطة والكفاءة ويحترم عواطف الشعب وعاداته وميول القبائل إلى الحرية والاستقلال الذاتي.

كذلك كانت أجهزة الدولة خفيفة خالية من روح الروتين والبيروقراطية حيث كان الموظف يعتبر نفسه خادما للدولة وجنديا مستعدا للاستجابة لنداء الواجب في أي لحظة.

وإذا كانت سلطة الولاة والعمال واسعة، وحكمهم غير خاضع للرقابة وإذا كانت طريقتهم في تحصيل الزكاة وجباية الضرائب صارمة وغير محددة فان الوازع الديني كان قويا في المسؤولين، كما كانت بقضة الأمير الذي هو المرجع الأخير والحكم النهائي، تمنع كل عبث وتضرب بيد من حديد على كل ما تشتم منه رائحة الفساد واستغلال النفوذ[١].

إن الأمير الذي اقتدى به خلفاءه وحاشيته كان مثالا للنزاهة والاستعداد للتضحية بالنفس والنفيس، وقد(كان احتقاره للثروة) على حد قول أحد المؤرخين الفرنسيين(وعزفه عن مظاهر البذخ من الخصائص المميزة لشخصيته).

كانت حاجات الأمير محدودة ومتواضعة، فان ملابسه تصنعها نساؤه، وغذاؤه مما توفره أملاكه وأراضيه والتي كان إنتاجها يسمح له أيضا بتقديم المساعدة للجرحى في الحرب، والضيافة لعابر السبيل وبالتالي فهو لا يحتاج الى سحب موارد قليلة أو كثيرة من بيت المال.

وهذه أيضا كانت حالة بعض أتباعه الذي جرى الأمير على اختيارهم من بين الأسر الكبيرة، أو من بين الشخصيات التي تربطها به صلة القرابة حيث انه يعتبر قدوة في حياتهم الرسمية والشخصية[٢].

وعلى الصعيد الأخلاقي كان شرب الخمر والتدخين محرما، كما كان ممارسة البغاء يعتبر جناية يعاقب عليها القانون.

وكان الأمير عبد القادر الجزائري يعني عناية خاصة بجميع الكتب خصوصا في (الزوايا) وقد كان في نيته إنشاء مكتبة عمومية كبيرة قد تكدمت حيث كان يحتفظ هو شخصيا بعدد مهم من المخطوطات التي استولى عليها الفرنسيين حينما أسقطت الزمالة في يد الدوق دومال، وكان هذا الطباع مثارا لأسف الأمير وحزنه في غضون السنوات التالية[٣].

وعلى الصعيد العسكري كانت استراتيجية الأمير عبد القادر الجزائري تقوم على اعتبار جوهري وهو العمل والاستعداد لمنع الفرنسيين من التوغل انطلاقا من المدن التي يحتلونها على الشواطئ إلى الداخل في المرحلة الأولى ثم العمل لطردهم من الجزائر في مرحلة تالية، وبناء على هذه النظرة كانت جبهة القتال في حسابه تمتد على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي نطاق هذه الإستراتيجية أحيطت المدن الشاطئية بعدد من القبائل الموالية له وجعل منها حراسا ووسيلة للضغط الاقتصادي على الفرنسيين وقت الحاجة.. وأهم هذه القبائل هي الغرابة في منطقة وهران وحجوطة في منطقة الجزائر، والقبائل المجاورة لمدينة بونة.. وبالسيطرة على هذه القبائل، وضع الأمير في يده مصير المدن المحتلة، حيث كان في وسعه أن يمنع وصول المنتجات الضرورية الى أسواقها ويعرض طرق تموينها للخطر، أو يطلق فرسان القبائل لمناوشة حاميتها، وفي التل يمتد خط من المدن الموازية للساحل من الغرب إلى الشرق وهي تلمسان ومعسكر ومليانه والمديه، وقد كان الأمير عبد القادر الجزائري يود أن يضيف إليها قسنطينة التي داعبه الأمل وقتا من الزمن في أن يجلوا الفرنسيين عنها كما جلوا عن معسكر بعد غزوها في المرة الأولى ولكنه سرعان ما أدرك إن الفرنسيين عوضا عن ذلك فقد اتخذوا هذه المدينة قاعدة لبسط سيطرتهم على أراضيها فهذه المدن التي تشكل الحضارة والعمران، فقد كانت تثير قلق الأمير من حيث إنها تشكل قاعدة محتملة لاستقرار العدو فيها ولنشر سلطانه منها على مختلف أطراف البلاد[٤].

---

(١) إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية لدولة الأمير عبد القادر، مطبعة الإسكندرية، ١٩٦٤، ط١، ص٧٨.

(٢) إسماعيل العربي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية الجزائرية للطباعة، الجزائر، بدون تاريخ، ص٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧.

(٤) أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٨، ط١، ص١٢٦.

ولمواجهة هذا الاحتمال، وضع الأمير عبد القادر الجزائري خطة لتخريب هذه المدن كلية، حتى قرر الفرنسيون احتلالها والاستقرار فيها، وبذلك يتفرغ الحياة العمرانية كل ما من شأنه أن يغر بهم بالبقاء في البلد ويحرمهم من الوسائل التي تسمح لهم بالتوغل منها إلى الداخل.وهذه التضحية العظمى كان الأمير مقتنعا بأن الشعب سيقبلها كما قبل غيرها بروح الشجاعة الوطنية ولكن سكان المدن أحجموا ورفضوا هذا المشروع ولذلك اضطر الأمير إلى التراجع عن هذه الخطة مع انه كان يعتقد إنها الطريقة الوحيدة لمنع الفرنسيين من الاستقرار والاستيطان في الداخل.

المبحث الثالث

نهاية كفاح عبد القادر الجزائري

لقد كانت الفترة التي تمتد من ١٨٣٩م إلى ١٨٤٧م حاسمة في تاريخ مقاومة الأمير وكفاحه فبعد أن تم نقض معاهدة تافة أواخر عام ١٨٣٩ ركز الفرنسيون كل أوقاتهم ضد عبد القادر فانتزعوا منه عاصمته (معسكر) ومعظم مدن الناحية الغربية مثل تلمسان وسعيده، واضطر الأمير أن ينسحب إلى الجنوب بعاصمته المتنقلة التي تدعى (بالزمالة) وفي عام ١٨٤٣م ضاعت زمالته هذه في معركة (عين طاقين) بجبال عمور في غيابه وكان ذلك ضربة قاضية له ولقواته وأنصاره[١].

فاضطر أن يلتجئ بمن بقي معه من الأهل والأتباع الى داخل المغرب الأقصى وأنزلهم في دائرة خاصة بعين زره في جبال الريف قرب سواحل البحر المتوسط وكان يأمل إن يحقق ثلاثة أهداف.

أولاً: الحصول على تأييد ومعاونة المغابية للجهاد والمقاومة.

ثانياً: إدخال الاطمئنان على نفوس أتباعه والمؤيدين لكفاحه.

ثالثاً: تأمين دائرته في زمالته عندما يعوذ هو للجهاد داخل الجزائر.

ورغم إن الأمير عبد القادر الجزائري اخضع كل القبائل الخارجة عن طاعته السلطان وأعادها إلى سلطته ونفوذه، إلا إن السلطان لم يعبأ بذلك، واعتذر للأمير من عدم استطاعته تقديم العون له، فترك الأمير عبد القادر الجزائري في دائرته حيث هي جبال الريف وعاد إلى الجزائر لمواصلة المقاومة جنوب وهران ولكن الفرنسيون هاجموا قوات عبد القادر حيث تراجعت بعد قتال شديد خسر فيها خيرة قواته مقابل ذلك رضخ السلطان لمطالب الفرنسيين ووقع معهم معاهدة مهنية اعترف فيها بأن الأمير عبد القادر خارج عن القانون وتعهد أن يعتقله نجد أن قبائل المغرب والجزائر سارعت إلى تأييد الأمير بعد أن خذلته حيث واصل نشاطه الحربي طوال فصلي الشتاء والربيع حتى وصل إلى تأكيد من أن سلطان المغرب جدد مطالبته الأمير عبد القادر الجزائري بالمغادرة[٢].

ويعد الحملة الفرنسية الكبرى بقيادة (بيجو) في الجزائر عاد الأمير مرة أخرى من الصحراء إلى الشمال واصطدم بالقوات الفرنسية وأعوانها ثم عاد إلى جرجرة وخاض معركة وادي سير المشهورة وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي ينتقل بها الأمير بحثا عن الأمن والاطمئنان والسلامة حاول الأمير إجراء اتصالات مع إسبانيا بواسطة حكامها العسكريين في مليلة ليبعد عنه الحصار غير أن الحكومة الإسبانية نصحته بتسليم نفسه إلى الفرنسيين على أن تتوسط إسبانيا له حيث كان يرتبط مع إسبانيا بعلاقات حسنة[٣].

وبعد أشهر من هذه الحادثة كانت الأمور قد ساءت إلى أقصى حد بين الأمير وسلطان المغرب الذي جهز جيشا من حوالي خمسين ألفا أسند قيادته إلى ابنه محمد وكلفهما بملاحقة الأمير ومهاجمته وفرض عليه حصار من الجنوب إلى الصحراء وعلى مضيق قريوس الذي يمكن الأمير وقواته أن تنسحب وبعد الاتفاقات المهيمنة بين الفرنسيين والقوات المغربية لطرد الأمير عبد القادر الجزائري في المطاردة المخزية لبطل المقاومة الجزائرية الذي لجأ إليهم محتميا[٤].

---

[١] يحيى أبو عزيز، مواقف بايات تونس والمغرب من الأمير، بيروت، ١٩٦٥م. ص٦٥.

[٢] المهدي ابو عبد لي، الجزائر في التاريخ، متابعة الحكومة الجزائية، ١٩٨٤ص٨٦.

[٣] احمد عزت، دراسات في تاريخ العرب الحديث، مطبعة بيروت، ١٩٧٠، ص٢٨.

[٤] المصدر نفسه، ص٦٩.

عاد الأمير عبد القادر إلى صحراء الجزائر متشردا فتضاءلت انتفاضة السكان بعد نفاذ ذخائرهم وتآمر بعض القبائل، فاستسلم إلى القوات الفرنسية عام ١٨٤٧. وبقي في فرنسا خمس سنوات اختار دمشق عام ١٨٥٥ وقضى حياته فيها حتى وفاته عام ١٨٨٣م.[1]

الخاتمة

يعد عبد القادر الجزائري أحد أبرز قادة الثورات في القرن التاسع عشر، ولم يكن ثائرا فحسب، وإنما كان رجل دولة من الطراز الأول وهو أحد الذين ارسوا أسلوب حرب العصابات قبل غيره من الثوار العالميين أمثال ماوتسي تونغ وجيفارا، ولم يهادن ولم يستكن للاستعمار الفرنسي ورفض كل الإغراءات التي استهدفت التأثير عليه، فنال بسبب ذلك ثقة شعبه وجماهير التي التفت حوله.

وقد أثبت الأميرعبد القادر الجزائري بقيادته للشعب الجزائري أنه قائد من الطراز الأول، وإن صعوبة جمع الجزائريين حول شخص قيادي في ظل الظروف الجزائر آنذاك تدخل على مقدار قوة شخصيته القيادية.

وقد استخدم الأمير أسلوب المناورة والتكتيك السياسي مع فرنسا دون أن ينسى الإستراتيجية البعيدة المدى، ولذلك فإن الهدنة التي كان يوقعها مع الفرنسيين كانت فرصة له لالتقاط الأنفاس في سبيل إعادة تنظيم قواته لمواجهة جديدة مع الغزاة لبلاده.

المصادر والمراجع

١. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣٠ – ١٩٤٥، الاداب، بيروت، ١٩٦٦م.
٢. أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٨.
٣. احمد عزت، دراسات في تاريخ العرب الحديث، مطبعة بيروت، ١٩٧٠
٤. إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية لدولة الأمير عبد القادر، مطبعة الإسكندرية، القاهرة، ١٩٦٤،
٥. إسماعيل العربي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية الجزائرية للطباعة، الجزائر، ، د، ت.
٦. الأمير محمد، عفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، مطبعة الإسكندرية، القاهرة، ١٩٧٣م.
٧. بوطمين الأخضر جودي، لمحات من ثورة الجزائر، الجزائر، ١٩٨١م.
٨. حمدي حافظ، ومحمود الشرقاوي، الجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م.
٩. دبوز محمد علي، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، الجزائر، ١٩٦٥م.
١٠. سهيل أدريس، التعذيب والشرف، مجلة الآداب، عدد ٦، بيروت، ١٩٥٧م.
١١. شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة سعد الله أبو القاسم، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.
١٢. عبد الجليل النعيمي، بحوث ووثائق في تاريخ المغرب، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٧م.
١٣. عبد الله شريلتو ومحمد المليلي، الجزائر في مرآة التاريخ، بيروت، ١٩٦٥م.
١٤. كارل بروكان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مطبعة الملايين، بيروت، ١٩٦٤م.
١٥. ليون فكس، ترجمة محمد عتاني، الجزائر حتف الاستعمار، مكتبة المعارف، بيروت، د، ت.
١٦. المسألة لهنري، ترجمة أديب مروة، ط ٣، دار النشر للجامعيين، لبنان، ١٩٥٨م.
١٧. المهدي ابو عبد لي، الجزائر في التاريخ، متابعة الحكومة الجزائية، لبنان، ١٩٨٤م.
١٨. نور سلمان، الأدب الجزائري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٧.
١٩. هنري كلود، ترجمة محمد غتاني، الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، مكتبة المعارف، مصر، د،ت.
٢٠. يحيى أبو عزيز، مواقف بايات تونس والمغرب من الأمير، بيروت، ١٩٦٥م.
٢١. يحيى، أبو عزيز، الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م.

[1] عبد الله شريلتو ومحمد المليلي، الجزائر في مرآة التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، ص٤٥.